العدد (4095) السنة الخامسة عشرة - الأحد (24) كانون الأول 2017
http://www.almadapaper.net Email: info@almadapaper.net

روح المكان.. أيها الفقر، الحياة أعظم منك!

أظنه هنري ميللر الذي انتبه الى أمكنة هادئة أو مقدسة وتساءل إن كانت ماكنة المستقبل ستنحرف عن هذه فتسلم أم ستسوّيها وتمضي؟ لو أشدّ على ذاكرتي، أقول ربما ورد هذا في كتابه sexit ، ست مقالات. ليكن القائل من يكون فهو تساؤلنا أيضاً. أنه اهتمامنا وأننا نعيش في عواطفنا أكثر مما في عقولنا والمنطق. لذا كثرت مراثينا ولا نخلو يوماً من شعور بالأسف على شيء حتى امتلأت أشعارنا بالفقد وصار ثيمة في الأغاني.

ياسين طه حافظ

الماكنة لا تعرف ، هذا مكان هادئ ذو معنى وتلك أرض ليست سوى تراب ولا هذه بقعة مريحة للنظر والروح وتلك وعرةٌ بلا معنى. هي تسحق الاثنين وتسويهما لتصير محطة وقود وربما سجناً. مستقبل أي بقعة خاضع لسلطة المال وخارطة المهندس . هو أيضاً مثل الماكنة يرسم على الورق بعيداً عن الأوصاف. هي أرض حسب وهو عمل!

والآن نتساءل من الذي يقرر أهمية أو جمالية أي بقعة أو أي مبنى قديم سيطاله العمران أو الهدم؟ هل نحن بأذواقنا التي وراءها ثقافتنا اليوم واحتياجات نفوسنا أم حاجة المستقبل التي تخص أجيالاً قادمة أكثر مما تعنينا؟ المشكلة إننا محمّلون بقيم جمالية وبعواطف كأننا حملتها الدائمون في العصر. المتطلبات أكبر منا. ونحن في حرج بين محبّاتنا وبين ضرورات التقدم أو التغيير. ليس معقولاً أن يتخلى الزمن والحياة عن تقدمهما أو أن تغير الحياة مجراها رعاية لعواطفنا وأذواقنا. لابد من تضحية ونحن عادةً من يضحون بعواطف أو بقيم أو بمفهومات كما نضحي بأيام وأعمار.

لذا كان دور الأدب دوراً تعويضياً متعاطفاً. ونحن نقرأ المئات من صفحات الكتب الادبية، نحس بمدى الأسى وسعته وكم هي مشاعر الرثاء والعواطف المنكسرة فيما يُكتب من شعر وما يُكتب من رواية والمسرح يعيش على عنصري الأسف و تراجيديا الشخوص. ولعل هذا أيضاً وراء ارتياحنا للرحاب الخضر أو الأشجار في الطريق أو المباني المنعزلة حيث تهب عليها وتنثني حولها الرياح. سعادتنا بالانسجام، بالهدوء مع شعور بالأسف بأن هذه ستكون غيرها غداً أو أنها يوماً ستغيب.

مرةً، في ندوة أقامتها المدى عن المعالم التراثية، حيث الكلام كثير عادةً عن رعاية هذا البيت التراثي وذاك وهذا "الرمز" وذاك .. كنت مشاكساً غير راغب بفرط احترام القديم والبعد عن الحاضر وعدم التفكير باحتياجات المستقبل: ماذا تريدون يا سادة، هل تبقى كل خرائب بغداد ونبقى نصونها وأين تعيش الأجيال وما جدوى مبان هي أصلاً هندسة أجنبية واردة مما وصل العراق بعد الحرب العالمية الأولى أو الثانية ولا أصالة وراءها. حسناً لنصن ما فيه فرادة لا كلما فيه قوس وقبة. وهل فكر مهندسونا اليوم بابتداع مبنى بشكل واحد من منجزات العصر كأن يكون على شكل سفينة فضاء أو ما هو قريب من الطائرة او أي عمل بانورامي يطل على أكثر من جهة أو بعد؟ هل نبقى في الاقواس والقباب، القباب التي هي في الأغلب مستوحاة من النخلة وقبة سعفها الأخضر؟ وهل كل قديم مهم أم هو الأثر المحتفظ بقوة إيحائه أو إشعاعه؟ أرأيتم تلك النجمة – الشمس التي كانت جميلة وناطقة حيّة في العلم العراقي بعد تموز ١٩٥٨؟ والصقر أو النسر في العلم الروسي الجديد؟ هذا مستوحى من لقية حثية عُثر عليها في أرض تابعة اليوم لروسيا واحتُفظ بها في المتحف. نعم من الحثيين القدامى ولكنه أثر ظل قوياً ومحتفظاً بجوهر إشعاعه. عدا ذلك ليس كل مبنى قديم ذا قيمة ولا كل أثر مهم، اللهم إلاّ للتوثيق.

هذه انعطافة غيّرت الكلام عن عواطفنا. حسناً ما يزال موضوعنا هذه الأمكنة التي تلامس أرواحنا، قبة قديمة، منحنى طريق، فضاء خال أو صخرة كبيرة بارزة من زمن في الحقل. هل نمنع المستقبل من أن يمسها أكراماً لقيمنا الجمالية اليوم ونحن مغادرون وجيل آخر قادم بذائقة اخرى وأجيال بعدهم تجيء؟

لكننا يمكن أن نكون اكثر صراحةً وننحو بالكلام أو بالتساؤل منحاً وجودياً: هل نعتز ونرثي هذه الأمكنة، بقاعاً أو معالم، أم نحن نرثي انفسنا بزوالها؟ هي بالتأكيد تلامس أرواحنا ولها صلات خفية بنا، حاضرةٌ هي ونحن حاضرون.. يبدو أن روحاً شعرية تدخلت، فأقول وماذا وراء هذا الضجيج والفوضى وماذا سيبقيان لأرواحنا؟ الماكنة لها مصابيح ولكنها عمياء لا ترى ولا تشعر ولا تعرف ما تسحق وما تهدم وتزيل. توقف ايها القدر! هذا احتجاج مبطن ضد المزيد من خساراتنا. لكنه منطق غير انسانياً فيما يحصل لهذا المكان؟ وهل أنت يا ياسين بنظارتيك المزدوجتين تجد حلاً لما استعصى على الحياة منذ دهور؟

الغريب إن الوجوه الشاحبة التي كانت تطل من الابواب الصفيح، كانت بقوتها الانسانية وبمعناها وواضحةً في وجوههم وقاماتهم قوة الحياة. كانت تجد في هذه الاكواخ الصفيح أفراحها وقصص حبها واعتزازاتها بألفة بعد عمر، هي هنا اكتملت واستقرت. للحياة ما تخفيه ولنا أن نعيش... هذا الذي نراه بؤساً أوجد تناسقات دقيقة في حياة الناس وصلات حميمة بينهم نسجتها الايام وهي تمر عليهم ما استطاع الفقر بكل رداءته ان يمنعها. فهم بين هذه وتلك ينهضون كل يوم متعبة ملامحهم او راضية بقدر ويعيشون نهاراتهم. المعايشة والالفة يصنعان حياة داخل ما نرى من حياة. فما عاد الصفيح صفيحاً وما عادت الابواب الملطخة بالازرق قميئة. هي تملك رغم البؤس فرحاً تستقبل به وترحاباً يحسه المتعب وهو يعود. ومن بعيد هي علامة وصول تحمل ابتسامتها المكتملة والناضجة للقادمين ...

لست مصطنع حقائق إذا قلت فيها حميمية نبيلة ورضا جميل وخطاب ذكريات وان لا الجوع ولا سوء المبنى ألغيا روح المكان ووردة الحياة فيه. وأن حياة أولاء الذين يعوزهم الكثير، لا تخلو ابداً من مباهج صغيرة وسعادات.

أيها الفقر ، الحياة أعظم منك !

لكن هل يكفي أن اقول هذا ويبقى الإشكال الصعب بين ما صار انسانياً ويمس أرواحنا وبين منطق التحولات الحاكمة وطاعة الماكنة العمياء؟ أظنُ على الأدب اليوم واحدةٌ من اثنتين : أما سبر جوانبنا العاطفية وصلاتنا الانسانية بمفردات الحياة، او ايضاح حال عالمنا وقدراته الفائقة والغاشمة في سحق الاشياء التي نحب من اجل ما سيكون افضل...

نعم صعبةٌ هي الاستجابة وليس سهلاً مجيء الرضا فنحن بين المتناقضين، نريد جديداً ونريد أن يبقى كل شيء كما كان! سلاماً يا أنفسنا المرهفة و المُمتَحَنة بأسئلة كثيرة، وسلاماً يا أحياء الفقراء...

الى ضفة. ولَما رأينا مجمعات سكنية تؤوي الناس بديل الصرائف والبيوت العتيقة وما رأينا أسواقاً حديثةً وحدائق وطرقاً جديدة في أمكنة كانت خراباً لكن تثير عواطفنا. هو إشكال نتردد في الرضا به. نحن لا نريد ان نفارق ولا نريد ان نخسر. ونريد المستقبل ولا نريد التغيير.الاجيال القادمة أيضاً ستأسى على زوال ما يريحها وما تألفه وتأنس إليه. هكذا إذاً هي الحقيقة: تتلف ثمار الغابة لتنبت من بذورها أشجار جديدة. وتتلف الأشجار بجذوعها والورق لتتغذى عليها أشجار أو حياة جديدة. ونخسر لنربح رؤية أخرى وحتى نغيب، وهذه أمر الحقائق! أسفاً لعواطفنا، نحاول قدر الامكان ان نستثني هذا المكان الجميل وهذا المعلم القديم العزيز ونستثني انفسنا ولا استثناء. الماكنة العمياء تقلب كل شيء امامها وتمضي. العزاء ان حياة جديدة قادمة! اليوم، وأنا أخطو بين بيوت هي كابينات صغيرة تؤوي بشراً، قلت: حسناً وجدوا في هذا العالم مأوى. أكيد أنهم يرون فيها ما يقربها لأرواحهم وأنهم ألفوها وصارت فيها اشياء عزيزة ولها معناها.

حسناً كان هذا في رأينا أو غير حسن، يوماً ستزيحها الحادلات وتمسحها جرافات خشنة لا تفهم ولكن ستنهض بنايات وزجاج وأضواء. وسنرى ونحن نمر يوماً عالماً جديداً قد نتذكر قديمه أو ننسى. كيف لي أن أبدي رأياً علمي. للزمن القادم جماليات أخرى وسواءٌ كانت جماليات غير مستقلة عن النفعية ام كانت سليمة، فهو العصر وما يأتي نتاج ضروراته ولسنا الحكام الأبديين فيه.

حسناً إن الماكنة، الحادلة او الجرافة، مثلاً، لا تعرف القداسة ولا تعرف ما هي المحبة أو الذكرى والا لتأخرنا كثيراً عن مشاهدة الجسور العظيمة التي تنقل الناس والحافلات من ضفة

■ لطفية الدليمي

قناديل

جامعات القرن الحادي والعشرين

وأنا أضعُ اللمسات الأخيرة على ترجمتي لكتاب (الثقافة) لمؤلفه الأشهر (تيري إيغلتون) تملّكتني الدهشة في الفصل الأخير من الكتاب ؛ إذ يورد إيغلتون وصفاً دراماتيكياً لمشاهد سائدة في إحدى الجامعات البريطانية (وهو نفسه أستاذ جامعي كما نعلم) ، ولا أحسب كلام إيغلتون إلا صادماً لكلّ من تُتاحُ له قراءته .

يرى إيغلتون أن ليس ثمة مثالٌ أكثر وضوحاً من مثال الإنحدار العالميّ في وضع الجامعات يكشفُ عن الكيفيّة التي تمثّلت بها الرأسمالية ماكان يُعدّ يوماً ما " ثقافة مضادة " ، وصار التقليد الجامعيّ الممتدّ لقرون بشأن كون الجامعات مراكز للنقد الفكري وصناعة المعرفة عرضةً للتدمير الحاليّ المنهج من خلال تحويلها إلى شركات شبه رأسماليّة مزيّفة تحت سطوة الأيديولوجيا الإدارية الجاهلة شديدة التغوّل والقسوة ، وراحت ميادين التأمّل النقديّ والمؤسسات الأكاديميّة تُختَزَلُ على نحوٍ مضطرد إلى عناصر في السوق الرأسمالية تُضافُ إلى المحلّات التجارية ومراكز بيع الأطعمة السريعة ، ووُضعت تلك الميادين والمؤسسات – في معظمها – بأيدي نخبة تكنوقراطية لاتعني القيم بالنسبة لها سوى موضوعة مماثلة للتعامل مع سوق العقارات ، وصار الشغيل (البروليتاريّ) الجديد من الأكاديميين المنتمين لعالم الفكر يتمّ تقييمه من خلال الكيفيّة التي يمكن لمحاضراته حول أفلاطون أو كوبرنيكوس – مثلاً – أن تساهم في دعم الإقتصاد وتعزيز جني المال ؛ أما الخريجون الجامعيون الجدد غير الحاصلين على فرصة عمل في الحقول الفكرية فيشكّلون بنظر التكنوقراط الرأسماليين شكلاً من أشكال الإنتلجنسيا الرثّة .

يواصل إيغلتون مداخلته المهمّة فيؤكّد أنّ الطلبة الّذين يدفعون في وقتنا الحاضر رسوماً دراسية سنويّة باهظة سيجدون مدرّسيهم الجامعيين عمّا قريب وهم يتآكلون في قدراتهم الفكرية سنة بعد أخرى ، ويوَرد إيغلتون المثال الصارخ التالي (تأمّل مثلاً أنّ جامعة بريطانيّة ، وفي سياق التمهيد لجعل بعض أعضائها الأكاديميين مدركين لطبيعة التغيّرات الهيكليّة الراديكالية القادمة ، أصدرت أمراً جامعياً حديثاً يفرضُ تحديداتٍ صارمة على قدرة الأستاذ الجامعيّ في الإحتفاظ بكتبه الشخصيّة في مكتبه – الذي بات يصغر يوماً بعد آخر – لأنّ فكرة الإحتفاظ بمجموعة شخصية من الكتب صارت فكرة عتيقة متقادمة ومهجورة . إنّ حلم الإداريين صلدي الرؤوس والقيّمين على إدارة جامعاتنا هو بيئة تنعدم فيها الكتب والأفكار المكتوبة ، وتعدُّ فيها الكتب مصدراً باعثاً على الفوضى ومادة ذات صوت مدوٍّ لاتتناغم مع الأرض اليباب الحديثة – ذلك الفضاء الرأسماليّ الأنيق الذي لاترى فيه سوى الآلات والبيروقراطيين ورجال الحماية ! ، وطالما أنّ الطلبة باتوا يُعدّون مصدر فوضى وتشويش طنّان فإنّ المثال الجامعيّ المطلوب هو بيئة جامعية لاترى فيها مخلوقات آدميّة أمام أبصارك . إنّ موت الإنسانيّات في جامعات اليوم ليس سوى حادثة تنتظر التحقّق في الأفق المنظور) .

إنّ مايحكي عنه إيغلتون قد يبدو للبعض مبالغة غير قابلة للتصديق ، وربما ماكانوا سيصدقونها لو صدرت من شخص ليس بمقام إيغلتون مكانة ثقافية وأكاديمية ؛ لكنها الحقيقة الصارخة والعارية ، وهي جزء من صورة أعمّ في (عالم باتت فيه الدولة عبداً مطيعاً في كلّ لحظة للطبقة الحاكمة وتخدم كآلة لتعزيز مصالح تلك الطبقة وبكيفية لم يحلم بها أكثر الماركسيين الأصلاء تطرّفاً ! ؛ إذ حصل في نهاية الأمر أن إرتدى رجال العصابات والفوضويون الشقاة الحقيقيون بدلات فاخرة الطراز وتركوا السرّاق النهّابين يديرون البنوك بطريقتهم الناعمة بدلاً من الإغارة عليها في وضح النهار!!).

يواصل إيغلتون مداخلته المهمّة فيؤكّد أنّ الطلبة الّذين يدفعون في وقتنا الحاضر رسوماً دراسية سنويّة باهظة سيجدون مدرّسيهم الجامعيين عمّا قريب وهم يتآكلون في قدراتهم الفكرية سنة بعد أخرى.

في شارع المتنبي

كعادتها إصبوحات المتنبي تضجّ بالمارة والحاضرين والعابرين، إلا أن هذا الصباح بين انطفاءاته وبريقه كان يحمل شيئاً لا بأس به من الحضور، وبعض الجلسات والندوات المهمة التي إنطلقت مع إصبوحة المدى الثقافية الخاصة هذه المرة بالاحتفاء بالمفكر التنويري والمؤرخ والسياسي الراحل فيصل السامر، كما شهدت هذه الجلسة التي قدمها الكاتب توفيق التميمي، أوراقاً وشهادات لمجموعة باحثين وكتّاب ومؤرخين امثال د. عماد الجواهري، والناقد والباحث نجاح هادي كبة، والكاتب داوّد العنبكي، والكاتب والباحث معن حمدان وآخرين....

متابعة المدى

■ مرايا الشعر وعدنان الصائغ

كما تضمنت إصبوحة المتنبي عدة احتفاءات من بينها جلسة للكاتب والشاعر سعد ياسين يوسف حيث احتفت مؤسسة النور للثقافة قاعة نازك الملائكة في المركز الثقافي البغدادي بتوقيع كتاب الناقد الدكتور خضير درويش والذي يحمل عنوان " الشاعر بين مرايا الشعر ومرايا الشعر مرايا عدنان الصائغ " دراسة نقدية ، جلسة أدار حوارها الشاعر الدكتور سعد ياسين يوسف وبمشاركة الشاعر عدنان الصائغ .

الدكتور سعد ياسين قال : إن الشاعر عدنان الصائغ شاعر عراقي ولد في الكوفة وكتب الشعر مبكراً ويعتبره البعض من الشعراء العراقيين المعاصرين المتميزين ، وكانت اولى اصداراته ديوان انتظرني تحت نصب الحرية عام 1984 وديوان اغنيات على جسر الكوفة عام 1986 وإصدارات اخرى

ومن جهته يقول الدكتور خضير درويش : إن موضوع دراستنا النقدية في هذا الكتاب مجموعة " مرايا لشعرها الطويل " الصادرة عن دار سطور للشاعر عدنان الصائغ يوضح فيها الايقاع الذي استرعى انتباهنا في هذ النصوص فقد تضمنه الفصل الثاني وهو إيقاع داخلي متنوع ومتعدد اعتمده الشاعر ليسبغ على نصوصه تنغيماً موسيقياً تعويضاً عن موسيقى البحور الشعرية

وأشار درويش الى أن الشاعر من خلال هذه النصوص استطاع أن يكون صوتاً شعرياً إمتاز به عن غيره من الشعراء وإن الجميل من القول قد يكون في النثر مثلما يكون في الشعر

وقد شارك الشاعر الصائغ بقراءات شعرية من مجموعته " مرايا لشعرها الطويل " خلال جلسة الاحتفاء.

■ سرد بوصفه شغفاً

كما أستضاف الملتقى الثقافي الروائي حميد الربيعي على قاعة جواد سليم في المركز الثقافي البغدادي والحديث عن إصداره الجديد والذي يحمل عنوان " سرد بوصفه شغفاً " ، جلسة ادار حوارها الروائي علي الحديثي وبمشاركة عدد من النقاد ومنهم الناقد اسماعيل ابراهيم عبد ، إذ بين في ورقته النقدية التي قدمها ، إن الكاتب قد أعد لنا مجمل رؤيته الخاصة بالتنظير السردي الذي وصف كليته بالوحدات المتضافرة بحسب الفعل السلوكي للكاتب يعادل صيغة التعامل مع الموجودات الحسية للكائنات المجسدة

وأشار الى أن الكاتب يرى التاريخ وهو يضع بكل وقائعه على الحياة اليومية ويحيلها الى صور لمنظومة اللاوعي حاضرة في الوعي الجمعي وهذا مايثير عدة قضايا اعتراضية منها إن التاريخ سجل لجميع الاحداث ، تلك التي اضرت بالمجتمعات فهو آلية حفظ لماضي الشعوب لا قدرة له على التحكم بالحاضر أو المستقبل.

■ داعش النهاية أم الكمون

قدمت جمعية النهوض للثقافة محاضرة على قاعة نازك الملائكة في المركز الثقافي البغدادي للاستاذ الباحث جمعة عبد الله المطلك بعنوان " داعش النهاية أم الكمون " ، قدم الجلسة الاستاذ الدكتور إحسان العارضي

وبين المطلك في حديثه أن هناك ثلاثة منظورات لقراءة داعش منها قراءة داعش عراقياً وهذه تحتاج برأي الى تخطيط منهجي داعش الامبريالية العالمية وداعش العربية الاسلامية وداعش العراقية وبتقديري عندما نقول إن في المعرفة قوة نفتح السؤال الذي يقول لماذا يبقى العراق في مكانه؟ واعتقد إن علوم النقد الحديثة لم تعد تقدم لنا تفسيرات واضحة لما يحدث في العراق في وقت الذي تشهد الساحة العراقية والثقافية تصحرات وإنها قاصرة عن الحفر في المشكلات ولايمكن لنا معرفة داعش إلا من خلال الحلقات الثلاث عالمياً وعربياً وعراقياً.